آيات و قصة

زيد.. هو ابن حارثة

أطفالنا في رحاب القرآن الكريم

٩٣





رزق هيبة

أطفالنا في رحاب القرآن الكريم
آيات وقصة

٩٣

زيد.. هو ابن حارثة

تأليف
محمد على قطب

رسوم
صفوت قاسم

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي
جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ
وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ
يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ
هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم
بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا
﴿٥﴾ سورة الأحزاب

مَعَانِي المُفْرَدَاتِ:

تُظَاهِرُونَ منهُنَّ: كَانَ الرَّجُلُ فِي الجَاهلِيَّةِ يَقُولُ لِزَوْجَتِه: أَنْت عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، أَيْ يُحرِّمُهَا عَلَيْهِ كحُرْمَةِ أُمِّه، وَيَحْتَسِبُ ذَلِكَ طَلاقًا، فَجَاءَ الإِسْلامُ وَأَبْطَلَ ذَلِكَ وَجعَلَ لَهُ حُكْمًا آخرَ غَيْرَ الطَّلاقِ.

أَدْعِيَاءَكُمْ: الأَوْلادُ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَصْلابِكُمْ لا تَجْعَلُوا حُكْمَهُمْ فِي الحَيَاةِ مَعَكُمْ كَحُكْمِ أَوْلادِكُمْ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَصْلابِكُمْ.

قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ: هُوَ قَوْلٌ تَقُولُونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ فَقَطْ، وَلَيْسَ حَقِيقِيًّا.

ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ: انْسبُوا كُلَّ وَلَدٍ لأَبِيهِ الحَقِيقِيِّ، وَلا تُعْطُوهُ اسْمًا غَيْرَ اسْمِ أَبِيهِ الَّذِي أَنْجَبَهُ.

أَقْسَطُ عِنْدَ الله: أَيْ ذَلِكَ هُوَ العَدْلُ الأَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ.

مَوَالِيكُمْ: المولَى هُوَ الرَّقِيقُ الَّذِي كَانَ مِلْكًا لإِنْسَانٍ فَأَعْتَقَهُ فَأَصْبَحَتْ بَيْنَهُمَا عَلاقَةٌ هِيَ عَلاقَةُ الوَلاءِ.. وَمِنْ مَعَانِي كَلِمَةِ المولَى، أَنَّهَا إِذَا قِيلَتْ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَبِيرِ قَدْرًا كَانَ مَعْنَاهَا السَّيِّدَ، وَإِذَا قِيلَتْ بِالنِّسْبَةِ لِلْقَلِيلِ قَدْرًا، كَانَ مَعْنَاهَا الخَادِمَ أَوِ التَّابِعَ.

صَلَّى أَبُو أَيْمَنَ فَرِيضَةَ الْعِشَاءِ فِي جَمَاعَةٍ هُوَ وَأُسْرَتُهُ، وَكَانَ هُوَ الإِمَامَ، وَبَعْدَ أَنْ قَضَتِ الأُسْرَةُ مَا عَلَيْهَا مِنْ حَقِّ الْعِبَادَةِ الْتَفَّتْ حَوْلَ وَالِيهَا الَّذِي يَقُومُ بِرِعَايَتِهَا، وَيُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْهَا أَمَامَ رَبِّهِ، وَبَدَأَتِ السَّهْرَةُ الْمُعْتَادَةُ، فَبَادَرَ أَيْمَنُ قَائِلاً:

لَقَدْ تَلَوْتَ يَا أَبِي فِي صَلاتِكَ آيَاتٍ أَعْرِفُ أَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ سُورَةِ الأَحْزَابِ، فِيهَا أَوَامِرُ خَاصَّةٌ بِتَنْظِيمِ الْعَلاقَةِ فِي الأُسْرَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَإِنِّي لأَرْغَبُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثُنَا اللَّيْلَةَ حَوْلَ هَذِهِ الآيَاتِ الكَرِيمَةِ.

قَالَ الوَالِدُ: بَارَكَ اللهُ فِيكَ يَا بُنَيَّ، وَفَتَحَ عَلَيْكَ، وَأَلْهَمَكَ الصَّوَابَ، إِنَّ فِي هَذِهِ الآيَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ النَّظَرَ وَالتَّفْكِيرَ، فَقَدْ جَاءَتْ بِحُكْمَيْنِ مُهِمَّيْنِ فِي حَيَاةِ الأُسْرَةِ؛ الأَوَّلُ فِي مَسْأَلَةٍ تُسَمَّى فِي كُتُبِ الْفِقْهِ مَسْأَلَةَ الظِّهَارِ، وَكَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَبْغَضَ زَوْجَتَهُ قَالَ لَهَا: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي ، وَيَعْتَبِرُ ذَلِكَ طَلاقًا، فَجَاءَ الإِسْلامِ يُبْطِلُ ذَلِكَ، وَيَقُولُ: إِنَّ أُمَّهَاتِكُمُ اللَّائِي وَلَدْنَكُمْ هُنَّ الْمُحرَّمَاتُ عَلَيْكُمْ، أَمَّا عَلاقَتَكُمْ بِنِسَائِكُمْ فَلَهَا أَحْكَامٌ أُخْرَى، وَقَدْ بَسَطَتْ كُتُبُ الْفِقْهِ الإِسْلامِيِّ هَذِهِ الأُمُورَ، وَسَوْفَ تَطُولُ سَهْرَتُنَا إِذَا أَرَدْنَا شَرْحَهَا وَتَفْصِيلَهَا.

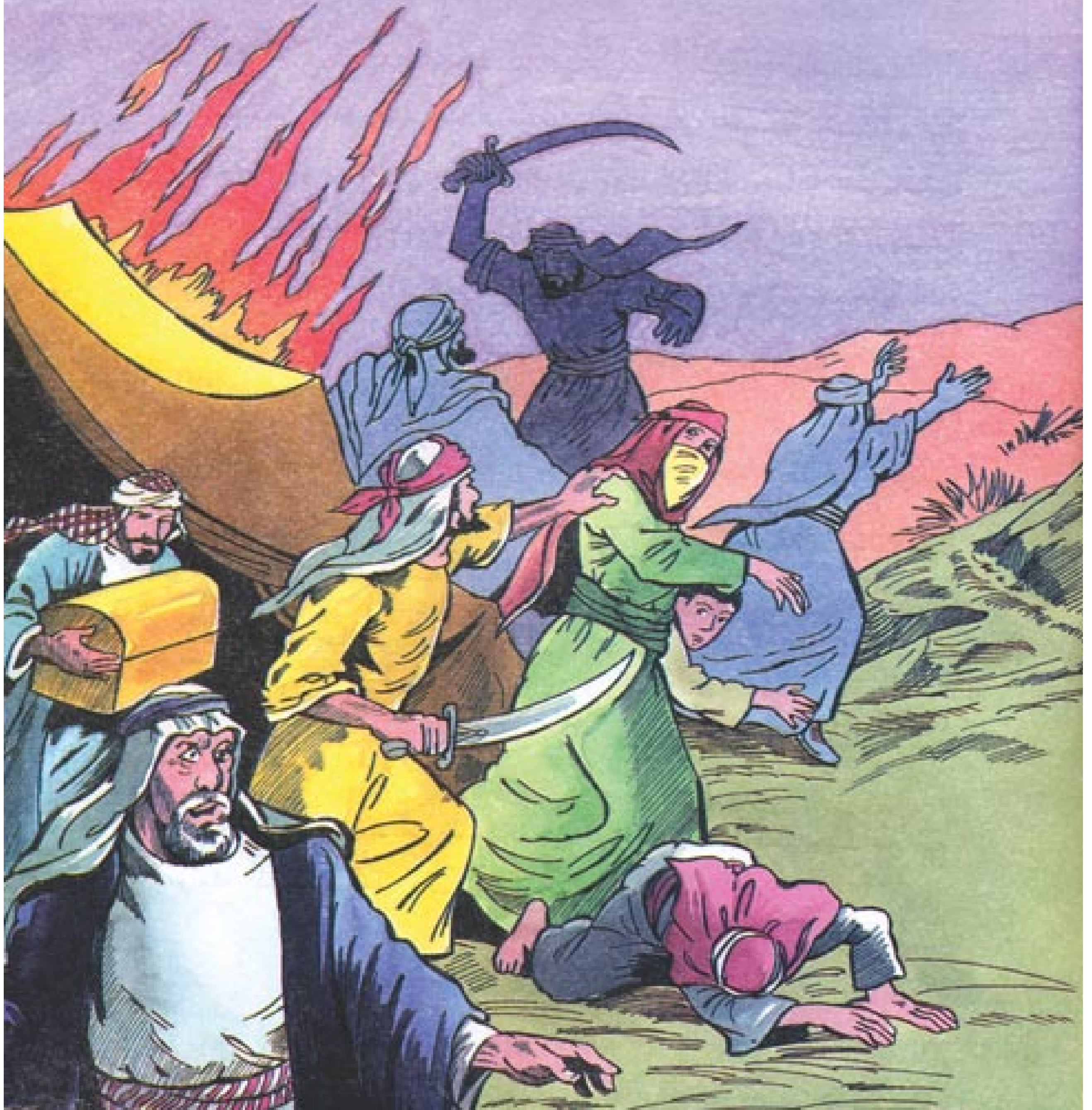
أَمَّا الْحُكْمُ الثَّانِي الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الآيَاتُ الكَرِيمَةُ، فَهُوَ حُكْمُ التَّبَنِّي، بِأَنْ يَنْسِبُ الإِنْسَانُ إِلَى نَفْسِهِ طِفْلاً لَيْسَ ابْنَهُ، وَيُعْطِيَهُ حَقَّ أَوْلادِهِ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ أَيْضًا مَعْرُوفًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَبْطَلَهُ الإِسْلامُ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُنْسَبَ كُلُّ إِنْسَانٍ إِلَى أَبِيهِ الْحَقِيقِيِّ، وَقَدِ اسْتَأْثَرَتْ بِهَذَا الْحُكْمِ، وَوَضَّحَتْ جَوَانِبَهُ، حَيَاةُ صَحَابِيٍّ جَلِيلٍ مَشْهُورٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- هُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، لِذَلِكَ سَتَكُونُ سَهْرَتُنَا، وَحَدِيثُنَا الَّذِي لَفَتَنَا إِلَيْهِ أَيْمَنُ، هُوَ الْحَدِيثُ عَنْ حَيَاةِ ذَلِكَ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ ، حِبِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، زَيْدِ ابْنِ حَارِثَةَ.

قَـالَتِ الأُسْرَةُ: رَضِيَ اللهُ عَنْ زَيْـدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَأَلْهَـمَنَا أَنْ نَكُونَ مِنَ التَّـابِعِينَ لِنَبِـيِّنَا مُحَمدٍ ﷺ وَصَحَابَتِهِ بِإِحْسَانٍ، فَهُوَ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

قَالَ الْوَالِدُ: آمِينَ، ثُمَّ اسْتَطْرَدَ فِي حَدِيثِهِ فَقَـالَ: لَقَدْ بَدَأَتْ حَيَاةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ بِمَأْسَاةٍ هِيَ أَصْعَبُ الْمَآسِي الَّتِي يُمكِنُ أَنْ تُعَانِيَهَا أُسْرَةٌ، حِينَ يَغِيبُ عَنْهَا أَحَدُ أَبْنَائِهَا، وَلا تَعْلَمُ كَيْفَ انْتَهَى بِهِ الْمَصِيرُ وَلا إِلَى أَيْنَ، فَـقَدْ كَانَتْ إِحْدَى عَادَاتِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ السَّـيِّئَةِ أَنْ تُغِيرَ بَعْضُ الْعِصَابَاتِ عَلَى الْبُيُوتِ وَالْقَبَائِلِ، وَتَهَـجِمَ عَلَيْهَا دُونَ عَدَاءٍ بَيْنَهُمْ وَلا حُرُوبٍ، وَلا ثَأْرٍ، كَمَا يَفْـعَلُ قُطَّاعُ الطُّرُقِ فِي كُلِّ زَمَانٍ. وَذَاتَ مَـرَّةٍ كَانَتْ سُـعْدَى بِنْتُ ثَعْلَبَـةَ أُمُّ زَيْدٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- تَزُورُ أَهْلَهَا بَنِي مَعْنٍ، وَقَدْ حَمَلَتْ مَعَهَا طِفْلَهَا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ الْكَعْبِيَّ.



وَهُنَاكَ وَعَلَى حِينِ غِرَّةٍ، هَبَطَتْ إِحْدَى هَذِهِ الْعِصَابَاتِ عَلَى الْبُيُوتِ، فَقَتَلَتْ مَنْ قَتَلَتْ ، وَأَخَذَتْ مَا اسْتَطَاعَتْ مِنْ مَالٍ، وَسَاقَتْ أَمَامَهَا الإِبِلَ، وَلَمْ تَكْتَفِ بِذَلِكَ، بَلِ اخْتَطَفَتْ مَنْ وَقَعَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الأَطْفَالِ الصِّغَارِ، وَكَانَ زَيْدٌ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَاحِدًا مِنَ الأَطْفَالِ الَّذِينَ اخْتَطَفُوهُمْ، وَكَانَ لا يَزَالُ طِفْلاً لا يَزِيدُ عُمُرُهُ عَنْ ثَمَانِيَةِ أَعْوَامٍ.



قَالَتْ إِيمَانُ: وَمَاذَا كَانُوا يَفْعَلُونَ بِهَؤلاءِ الأَطْفَالِ الَّذِينَ يَخْتَطِفُونَهُمْ؟.

قَالَ الوَالِدُ: كَـانُوا يَبِيعُونَهُمْ فِي الأَسْـوَاقِ، لِيُصْبِحُوا بَـعْدَ ذَلِكَ عَبِيدًا لِمَنْ يَشْـتَرِيهِمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ أَيْضًا إِحْدَى الْعَـادَاتِ السَّيِّئَةِ فِي الجَاهِلِيَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَعِنْدَ غَـيْرِهِمْ أَيْضًا، وَكَانَ مَصِيرُ زَيْدٍ وَهُوَ فِي طُفُـولَتِهِ تِلْكَ أَنْ يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى سُوقِ عُكَاظَ، فَيَشْـتَرِيهِ وَاحِدٌ مِنْ عُظَمَاءِ مَكَّةَ وَسَادَةِ قُرَيْشٍ اسْمُهُ حَكِيمُ بْنُ حَزَامِ بْنِ خُـوَيْلِدٍ، وَهُوَ ابْنُ أَخٍ لِلسَّيِّدَةِ أُمِّ المُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَكَانَ مِنْ عَادَةِ حَكِيمٍ هَذَا أَنْ يَبْـعَثَ إِلَى عَمَّتِهِ خَدِيجَـةَ بِالهَدَايَا، صِلَةً لِلرَّحِمِ، وَمَوَدَّةً وَقُرْبَى لِلأَهْلِ، فَلَمَّا عَـادَ مِنْ سُوقِ عُكَاظَ، وَجَاءَتْهُ عَمَّتُهُ خَـدِيجَةُ تَزُورُهُ، وَتُرَحِّبُ بِهِ بَعْدَ رُجُوعِهِ، قَالَ لَهَا: يَا عَـمَّتِي الْعَزِيزَةُ، لَقَدِ اشْتَرَيْتُ مِنْ سُوقِ عُكَاظَ مَجْـمُوعَةً مِنَ الْغِلْمَانِ، وَأَنَا أَرْغَبُ أَنْ أُقَدِّمَ وَاحِدًا مِنْهُمْ هَدِيَّةً لَكِ، فَاخْتَـارِي مِنْهُم مَنْ تَشَائِينَ، وَاصْحَبِي إِلَى دَارِكِ مِنْهُمْ مَنْ تَرْغَبِينَ، فَإِنَّ نَفْسِي طَيِّبَةٌ لَكِ بِذَلِكَ.

وَاسْتَعْرَضَتِ السَّيِّدةُ خَدِيجَـةُ- رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- وُجُوهَ الأَطْفَالِ، وَتَوَقَّفَتْ نَظَرَاتُهَا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَأَتْ فِـيهِ عَلامَـاتِ النَّجَابَةِ، وَبَدَا عَلَى مُـحَيَّاهُ مَـا تَسْتَرِيحُ لَهُ النَّـفْسُ، وَيَطْمَئِنُّ الْقَلْبُ، فَقَالَتْ لابْنِ أَخِيهَا: لَقَدِ اخْتَرْتُ هَذَا الْغُلامَ.

قَالَ حَكِيمٌ: حُبًّا وَكَرَامَةً هُوَ هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَيْكِ.

كَانَ هَذَا الْغُلامُ هُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَقَدْ أَخَذَتْهُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ إِلَى بَيْتِهَا، لِينَالَ مَا كَتَبَهُ اللهُ لَهُ مِنْ سَعَادَةٍ بَعْدَ ذَلِكَ.

قَالَ أَشْرَفُ: وَكَيْفَ تَأْتِي السَّعَادَةُ إِلَى قَلْبِ طِفْلٍ مَخْطُوفٍ، بَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَأَهْلِهِ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُ، وَيَحمُونَهُ مِنْ مَخَاطِرِ الزَّمَانِ؟.

قَالَ الوَالِدُ: لأَنَّهُ عَاشَ فِي بَيْتِ النُّبوَّةَ ورَبَّاهُ رَسُـولُ اللهُ ﷺ، فَقَدْ تزوَّجَتْ خَدِيجَةُ- رَضِي اللهُ عَنْهَا- نَبِيَّ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ، وكَانَ عُمرُهُ- علَـيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- خَمسةً وعِشْرِينَ عامًا، أَيْ قَبْلَ بَعْثَتِهِ ﷺ بِخَمْسَـةَ عَشَرَ عَامًا، وأَرَادَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَة أَنْ تُقدِّمَ هَدِيَةً إِلَى النَّبيِّ ﷺ، فَلَمْ تَرَ خَيْرًا مِنْ زَيْدٍ، فَأَهْدَتْهُ إِلَيْهِ.

قَالَتْ إِيمَانُ: وَمَاذَا فَعَلَ أَهْلُ زَيْدٍ؛ أَبُوهُ وَأُمُّهُ، أَلَمْ يَبْحَـثَا عَنْهُ، لِيَعْرِفَا إِلَى أَيْنَ أَلْقَى بِهِ مَصِيرُهُ؟.

قَالَ الْوَالِدُ: صَبْرًا يَا بُنَيَّتِي، وَلا تَسْبِقِي الأَحْدَاثَ. . . إِنَّ أَهْلَ زَيْدٍ لَمْ يَسْتَكِينُوا لِمَا وَقَعَ لَهُ، لَقَدْ كَانَتْ أُمُّهُ مَفْجُوعَةً، تَعِيشُ فَجِيعَتَهَا فِي صَمْتٍ، نَهَارُهَا قَلَقٌ ، وَلَيْلُهَا سُهْدٌ، لا يَقَرُّ لَهَا قَـرَارٌ، وَلا تَسْكُنُ نَفْسٌ، وَلا يَطْمَـئِنُّ قَلْبٌ، وَهِيَ المَرْأَةُ الضَّعِـيفَةُ لا تَسْـتَطِيعُ أَنْ تَصْنَعَ شَيْئًا، وَلا تَمْلِكُ غَيْرَ الدُّمُوعِ.

أَمَّا أَبُو زَيْدٍ فَقَدْ رَاحَ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيَسْأَلُ عَنْهُ كُلَّ مَنْ يَلْقَاهُ، وَيُرْسِلُ أَنِينَهُ فِي أَبْيَاتٍ مِنَ الشِّعْرِ حَفِظَهَا لَنَا التَّارِيخُ، مِنْهَا تِلْكَ الْقَصِيدَةُ المشْهُورَةُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

بَكَيْـتُ عَلَى زَيْدٍ، وَلَمْ أَدْرِ مَـا فَـعلْ ... أَحَيٌّ فَـيُـرْجَى أَمْ أَتَـى دُونَهُ الأَجَلْ؟

فَـوَاللهِ مَـا أَدْرِي وَإِنِّي لَسَـائِلٌ ... أَغَالَكَ بَعْدِي السَّهْلُ أَمْ غَالَكَ الجَبَلْ؟

تُذَكِّـرُنِيـهِ الشَّـمْسُ عِنْدَ طُلُوعِـهَا ... وَتَعْـرِضُ ذِكْـرَاهُ إِذَا غَـرْبُهَـا أَفَلْ

سَأُعْمِلُ نَصَّ الْعِيسِ فِي الأَرْضِ جَاهِدًا ... وَلا أَسْـأَمُ التَّطْوَافَ أَوْ تَسْـأَمَ الإِبِلْ

حَـيَـاتِيَ أَوْ تَأْتِي عَلَيَّ مَنِيَّـتِي ... فَكُلُّ امْـرِئٍ فَـانٍ وَإِنْ غَـرَّهُ الأَمَلْ

ومَا زَالَ حَـارِثَةُ الْكَعْبِيُّ - أَبُو زَيْدٍ - هكَذَا، يَطُوفُ بَيْنَ الْقَـبَائِلِ، وَيَسْـأَلُ الْقَوَافِلَ ، وَيَبْكِي بُكَاءَ المَحْزُونِ، إِلَى أَنْ أَتَاهُ الْبَشِيرُ بِأَنَّ زَيْدًا لا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ.

فَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ، يَحُجُّونَ إِلَى الْبَيْتِ الحَرَامِ، اتِّبَاعًا لِبَقَايَا مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَبِي الأَنْبِيَاءِ- عَلَيْهِ السَّلامُ-؛ لأَنَّ الحَجَّ فُرِضَ عَلَى النَّاسِ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ الْبَعِيدِ، وَفِي أَحَدِ مَوَاسِمِ الحَجِّ كَانَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ زَيْدٍ يَزُورُونَ الْبَيْتَ الحَرَامَ، وَبَيْنَمَا كَانُوا يَطُوفُونَ بِالكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ لَمَحُوا طِفْلاً أَحَسُّوا نَحْوَهُ بِإِحْسَاسِ الْقَرَابَةِ وَالدَّمِ، فَاقْتَرَبُوا مِنْهُ وَسَأَلُوهُ عَنِ اسْمِهِ وَعَنْ أَهْلِهِ، فَأَجَابَهُمْ، فَتَعَرَّفُوا عَلَيْهِ، وَعَرَّفُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ، وَبَعْدَ قَضَاءِ المَنَاسِكِ عَادُوا إِلَى دِيَارِهِمْ، وَأَخْبَرُوا حَارِثَةَ الْكَعْبِيَّ بِمَا رَأَوْا، وَأَسْعَدُوا قَلْبَهُ بِتِلْكَ الْبُشْرَى.



وَلَمْ يُكَذِّبْ حَارِثَةُ الخَبَرَ، وَطَارَ فُؤَادُهُ فَرَحًا ، فَـاصْطَحَبَ أَخًا لَهُ يُسَمَّى كَعْبًا، وَحَمَلَ مَعَهُ مَا اسْـتَطَاعَ مِن مَالٍ، وَذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ لِيَفْتَدِيَ ابْنَهُ بِمَا يَطْلُبُهُ مُـحَمَّدٌ ﷺ، وَيَعُودُ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ.

وَهُنَاكَ ، وَفِي الْبَلَدِ الحَرَامِ، حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ يَتَصَـوَّرُهُ حَارِثَةُ، وَلا أَخُوهُ كَعْبٌ، فَقَدْ قَابَلا مُـحَمَّدَ بْنَ عَبـدِ اللهِ - وَلَمْ تَكُنْ أَتَتْهُ النُّبُوَّةُ بَعْـدُ، فَقَالاَ لَهُ: يَا بْنَ عَـبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْتُمْ جِيرَانُ اللهِ، تَفُكُّونَ الْعَانِيَ، وَتُجِيرُونَ الْمُسْتَجِيرَ، وَتُطْعِمُونَ الجَائِعَ، وَتُغِيثُونَ الْمَلْهُوفَ.

قَالَ لَهُمَ: صَدَقْتُمَا، فَمَاذَا تُرِيدَانِ؟.

قَالا: جِئْنَـاكَ فِي ابْنِنَا الَّذِي عِنْدَكَ، وَحَمَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْمَالِ مَا نَفْـدِيهِ بِهِ، فَامْنُنْ عَلَيْنَا، وَفَادِهِ بِمَا تَشَاءُ.

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَمَنِ ابْنُكُمَا الَّذِي تَعْنِيَانِ؟.

قَالاَ: غُلامُكَ، زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ.

قَالَ: وَهَلْ لَكُمَا فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْفِدَاءِ؟.

قَالا: وَمَا هُوَ؟.

قَالَ: أَدْعُـوهُ لَكُمْ، فَخَيِّـرُوهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، فَإِنِ اخْـتَارَكُمْ فَهُـوَ لَكُمْ بِغَيْـرِ فِدَاءٍ، وَإِنِ اخْتَارَنِي ، فَمَا أَنَا وَاللهِ بِالَّذِي يَرْغَبُ عَمَّنِ اخْتَارَهُ.

قَالَهَـا مُحَمَّـدٌ ﷺ صَادِقًا، وَقَبِـلا مِنْهُ ذَلِكَ، وَاعْتَبَـرَاهُ إِحْسَانًا وَفَـضْلاً، فَقَـالا: لَقَدْ أَنْصَفْتَ ، وَبَالَغْتَ فِي الإِنْصَافِ.

فَدَعَا مُحَمدٌ زَيْدًا، وَقَالَ لَهُ: مَنْ هَذَانِ؟.

قَالَ زَيْدٌ: هَذَا أَبِي حَارِثَةُ بْنُ شُرَاحِيلَ، وَهَذَا عَمِّي كَعْبٌ.

فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ : لَقَدْ خيَّرتُك، إنْ شئْتَ مَضَيْتَ معهُمَا، وإنْ شئْتَ أَقَمْتَ مَعِي.

ولَمْ يتَردَّدِ الغُلامُ فِي الاختيَارِ، وإنَّمَا بَادرَ فِي غَيْرِ إبْطَاءٍ، فقَالَ: بَلْ أُقِيمُ مَعكَ.

قَالَ حَارِثَةُ: وَيْحكَ يَا زَيْدُ، أَتَختَارُ العُبُودِيَّةَ عَلَى أَبِيكَ وأُمِّكَ؟.

فقَالَ زَيْدٌ: إنِّي رأَيْتُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ شَيْئًا، ومَا أَنَا بِالَّذِي يُفَارِقُهُ أَبَدًا.

وكَأَنَّ زَيْدًا فِي هَذِهِ السِّنِّ الصَّغِيرَةِ، قَدْ لَمَسَتْ نَفْسُهُ جَوَّ الطُّهْرِ وَالنَّقَاءِ الَّذِي يَعْبَقُ بِهِ المُكَانُ الَّذِي آلَ إِلَيْهِ، فكَانَ اختِيَارُهُ، ونِعْمَ مَا اختَارَ.

وهُنَا تَبْدَأُ تِلْكَ المَسْأَلَةُ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا هَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي مَعَنَا، مَسْأَلَةُ التَّبَنِّي، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، لمَّا رَأَى اختِيَارَ زَيْدٍ لَهُ، وتَفْضِيلَهُ إِيَّاهُ عَلَى أَبِيهِ وأُمِّهِ وأَهْلِهِ، أَخَذَ بِيَدِهِ ، وأَخْرَجَهُ إِلَى البَيْتِ الحَرَامِ، ووَقَفَ بِهِ فِي الحِجْرِ، عَلَى مَلأٍ مِنْ قُرَيْشٍ، ونَادَى: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْهَدُوا أَنَّ هَذَا ابْنِي أَرِثُهُ ويَرِثُنِي.

وهُنَا هَدَأَتْ نَفْسُ حَارِثَةَ بْنِ شُرَاحِيلَ الكَعْبِيِّ، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ، وعَادَ هُوَ وأَخُوهُ كَعْبٌ إِلَى دِيَارِهِمَا، وقَدْ ارْتَاحَ بَالُهُمَا، فهُمَا -عَلَى الأَقَلِّ- قَدْ عَرَفَا مكَانَهُ، ويُمْكِنُ لأَيِّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهِ أَنْ يَزُورَهُ ويَطْمَئِنَّ عَلَيْهِ وَقْتَمَا يَشَاءُ.

ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْمِ، أَصْبَحَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، مَنْسُوبًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وصَارَ اسْمُهُ الَّذِي يُنَادَى بِهِ بَيْنَ النَّاسِ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ.

وعَاشَ زَيْدٌ مَا عَاشَ وَهُوَ يَحْمِلُ ذَلِكَ الاسْمَ، إِلَى أَنْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُبْطِلَ عَادَةَ التَّبَنِّي، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ...** ⟨٥⟩﴾ [الأحزاب] أَيْ لا تَنسبُوا أَحَدًا لِغَيْرِ أَبِيهِ؛ لأَنَّ ذَلِكَ سَيُضِيعُ حَقَّ آخرِينَ، وسَيَخلِطُ مَا هُوَ حَرَامٌ بِمَا هُوَ مُبَاحٌ وحَلالٌ، والحَقِيقَةُ أَنَّهُ : ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ...** ⟨٤٠⟩﴾ [الأحزاب] وهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، فَلا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَجْعَلَ غَيْرَ الأَبْنَاءِ أَبْنَاءً لَهُ، وإِنَّمَا كُلُّ إِنْسَانٍ يُدْعَى إِلَى أَبِيهِ الحَقِيقِيِّ.

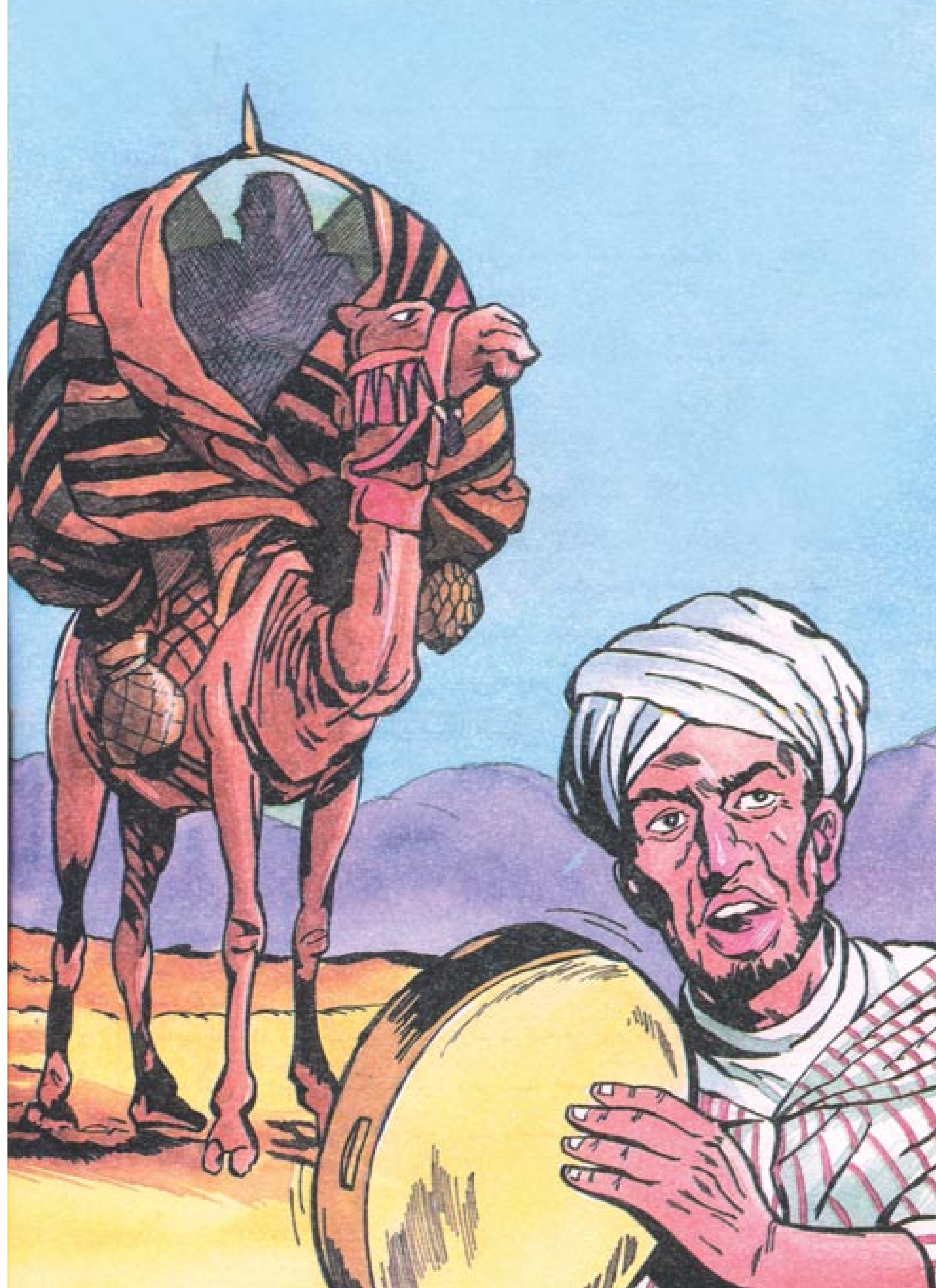
وعَادَ إِلَى زَيْدٍ اسْمُهُ الصَّحِيحُ، فَأَصْبَحَ يُدْعَى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ؛ لأَنَّ هَذِهِ هِيَ الحَقِيقَةُ، فَزَيْدٌ هُوَ ابْنُ حَارِثَةَ، ولَيْسَ ابْنًا لِمُحَمَّدٍ ﷺ.

قَالَ أَيْمَنُ: وكَيْفَ يَخْتَلِطُ الحَرَامُ بِالحَلالِ المُبَاحِ فِي مَسْأَلَةِ التَّبَنِّي هَذِهِ، مَعَ أَنَّ المَقْصُودَ مِنْهَا هُوَ مُسَاعَدَةُ طِفْلٍ ضَعِيفٍ عَلَى الحَيَاةِ السَّوِيَّةِ، والتَّعَاوُنُ والمُسَاعَدَةُ فَضِيلَةٌ مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي يُحَبِّذُهَا الدِّينُ ويَأْمُرُ بِهَا؟.

قَالَ الوَالِدُ: إِنَّ المُسَاعَدَةَ وَالتَّعَاوُنَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، وَهَذَا شَيْءٌ مُمكِنٌ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ، ولا يَسْتَدْعِي أَنْ يَنْتَسِبَ إِنْسَانٌ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، ولَكِنْ عِنْدَمَا يَتَبَنَّى الرَّجُلُ طِفْلاً غَرِيبًا عَنْهُ، ويَنْسِبُهُ إِلَى نَفْسِهِ، ويَسْتَخرِجُ لَهُ شَهَادَةَ مِيلادٍ بِأَنَّهُ ابْنُهُ، فَفِي هَذِهِ الحَالَةِ سَيَكُونُ هَذَا الطِّفْلُ وَاحِدًا مِنَ الأُسْرَةِ، يَسْلُكُ فِيهَا مَسْلَكَ أَحَدِ أَبْنَائِهَا، فَيَطَّلِعُ عَلَى عَوْرَاتِهَا الَّتِي يَحْرُمُ عَلَى الإِنْسَانِ الْغَرِيبِ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا، ويَحرِّمُ عَلَى نَفْسِهِ الزَّوَاجَ مِنْ إِحْدَى بَنَاتِهَا وَهِيَ لَيْسَتْ محرَّمَةً عَلَيهِ، وَقَدْ يُصَادِفُ أَنْ يَتزوَّجَ أُختَهُ الحَقِيقِيَّةَ الَّتِي هِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِ، وَيكُونُ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ المِيرَاثِ وَهُوَ لَيسَ مِنْ حَقِّهِ فَيحرِمُ الوَارِثِينَ مِنْ جُزْءٍ مِنْ نَصِيبِهِمُ الشَّرْعِيِّ فِي المِيرَاثِ، وَهَذِهِ هِيَ بَعْضُ المُشْكِلاتِ الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَى مَسْأَلَةِ التَّبَنِّي، وَقَدْ وَضَحَتْ أَمْثِلَةٌ لِذَلِكَ فِي حَيَاةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ بِالذَّاتِ.

قَالَتْ إِيمَانُ: كَيْفَ حَدَثَ ذَلِكَ؟.

قَالَ الوَالِدُ: لَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الدِّينِ، كَانَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الإِسْلامِ، ويَعِيشُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ عَلَى أَنَّهُ تَابِعٌ لَهُ وَمَوْلًى، بَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يُنْسَبَ كُلُّ وَلَدٍ إِلَى أَبِيهِ الحَقِيقِيِّ، ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المَدِينَةِ المنورَّةِ، وَهَاجَرَ زَيْدٌ مَعَهُ، وَلَمْ يَترُكْهُ فِي يَوْمٍ مَا، وَأَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ، فَخَطَبَ النَّبِيُّ لَهُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَشَرِيفَةٌ مِنْ شَرِيفَاتِ قُرَيشٍ، فَكَرِهتْ أَنْ تَتزوجَّهُ، وَأَبتْ وَامْتَنَعَتْ.



فَـأَخْـبَـرَهَـا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ ذَلِكَ الزَّوَاجَ بِأَمْـرٍ مِنَ اللهِ- سُـبْحَـانَهُ وَتَعَـالَى، وَنَزَلَتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ، تَقُولُ:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ... ٣٦﴾ [الأحزاب].

فَـأَذْعَنَتْ زَيْنَبُ لِذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْـهُ عَلَى مَضَضٍ مِنْهَا، إِذْ كَانَ يَدُورُ فِي خَـاطِرِهَا أَفْكَارٌ: كَـيْفَ تَتَزَوَّجُ، وَهِيَ الشَّرِيفَـةُ القُرَشِيَّةُ، رَجُـلاً كَـانَ فِـي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ عَبْدًا، ثُمَّ هِـيَ الجَمِيلَةُ الحَسِـيبَةُ النَّسِيبَـةُ، كَيْفَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ فِي ظِلِّ رَجُلٍ لا تَـدْرِي مَنْ أَبُوهُ وَمَنْ هُمْ أَهْلُهُ، وَنَـغَّـصَتْ هَذِهِ الأَفْكَارُ حَـيَاةَ الأُسْرَةِ الَّتِـي كَانَ اجْتِمَاعُهَا بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَكَـانَ زَيْدٌ -رَضِيَ اللهُ عَـنْهُ- يَشْكُو هُمُـومَهُ وَمُـعَامَلَةَ زَوْجِـهِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَـحْشٍ، إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّبِيُّ يُوَاسِـيهِ وَيَنْصَحُـهُ بِالصَّـبْرِ حَتَّى يَجْـعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ ضِيقِهِ فَرَجًا.



فَكَانَ النَّبيُّ ﷺ يَقُولُ لَهُ: يَا زَيْدُ، هَذِهِ زَيْنَبُ ، يَسَّرَ اللهُ لَكَ زَوَاجَهَا بَعْدَ عُسْرٍ، وَسَهَّلَهُ بَعْدَ امْتِنَاعٍ، وَعَسَى أَنْ يُصْلِحَ لَكَ حَالَهَا ، فَأَمْسِكْهَا عَلَيْكَ، وَلا تُطَلِّقْهَا، وَاتَّقِ اللهَ فِيهَا حَتَّى لا يَشِيعَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّهَا لا تُحْسِنُ عِشْرَةَ الأَزْوَاجِ، وَعُدْ إِلَى الرُّشْدِ وَالصَّوَابِ، فَلا تَنْقُضْ أَمْرًا أَبرَمْتَهُ، وَلا تَفُكَّ رَابِطَةَ زَوَاجٍ لَمْ يَتِمَّ إِلا بَعْدَ أَنْ نَزَلَ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

ولَكِنَّ زَيْدًا ضَاقَ ذَرْعًا بِمُعَاشَرَةِ زَوْجَةٍ تَتَأَبَّى عَلَيْهِ، وَتَسْتَنْكِفُ العَيْشَ مَعَهُ؛ لأَنَّهَا فِي نَظَرِ نَفْسِهَا شَرِيفَةٌ وَهُوَ مُجَرَّدُ مَوْلًى مِنَ المَوَالِي الَّذِينَ كَانُوا عَبِيدًا وَأَعْتَقَهُمْ سَادَاتُهُمْ، وَلَمْ تُبَالِ بِأَنَّهُ أَصْبَحَ فِي حُكْمِ الإِسْلامِ أَحَدَ السَّادَاتِ السَّابِقِينَ إِلَى الدِّينِ الحَنِيفِ، المُخَالِطِينَ لأَشْرفِ الخَلْقِ أَجْمَعِينَ، بَلْ هُوَ حَبِيبٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى كَانَ هَذَا الحُبُّ إِحْدَى صِفَاتِهِ الَّتِي يَعْرِفُهَا عَنْهُ المُجتمعُ كُلُّهُ، فَكَانُوا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ هَذَا اللَّقَبَ الشَّرِيفَ : زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

طَلَّقَ زَيْدُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحشٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- وَفَكَّ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ رِبَاطٍ، وَكَمَا كَانَ زَوَاجُهُ مِنْهَا بِأَمْرٍ مِنَ اللهِ، كَانَ أَمْرُ اللهِ أَيْضًا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ.

وكَانَ زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ زَيْنَبَ خَرْقًا لِعَادَاتِ الْعَرَبِ، إِذْ يَعْتَبِرُونَ الرَّجُلَ فِي هَذِهِ الحَالَةِ قَدْ تَزَوَّجَ مِنْ زَوْجَةِ ابْنِهِ السَّابِقَةِ، وَهُوَ زَوَاجٌ حَرَامٌ فِي الإِسْلامِ، كَمَا كَانَ مَذْمُومًا فِي الجَاهِلِيَّةِ.

وَلَكِنْ هُنَا تَظْهَرُ حِكْمَةُ التَّشرِيعِ العَظِيمَةُ؛ إِذْ أَبْطَلَ الإِسْلامُ أَمْرَ التَّبَنِّي وَكُلَّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ إِرْثٍ وَنَسَبٍ وَزَوَاجٍ وَطَلاقٍ، فَهَذَا الإِنْسَانُ المُتَبَنَّى مَا هُوَ إِلا وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ لَهُ نَسَبُهُ الخَاصُّ بِهِ الَّذِي تَتَرتَّب عَلَيْهِ الأَحْكَامُ التَّشْرِيعِيَّةُ الخَاصَّةُ بِكُلِّ النَّاسِ.

وَسَارَتْ حَيَاةُ زَيْدٍ سَيْرَهَا المَرْضِيَّ، وكَمَا أَحَبَّ النَّبِيَّ ﷺ ، وَفَضَّلَهُ عَلَى أُمِّهِ وَأَبِيهِ، أَحَبَّهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ- صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلامُهُ- وَخَلَطَهُ بِأَهْلِهِ وَبَنِيهِ، فَكَانَ يَشْتَاقُ إِلَيْهِ إِذَا

غَابَ عَنْهُ، وَيَفْرَحُ بِقُدُومِه إِذَا عَادَ إِلَيْه، وَيَلْقَاهُ لِقَاءً لا يَحْظَى بِمِثْلِه أَحَدٌ سِوَاهُ، وَتِلكَ هِيَ أُمُّ المؤْمِنينَ عَائِشَةُ- رَضِـيَ اللهُ عَنْهَا- تُصَوِّرَ لَنَا مَشْهَـدًا مِنْ مَشَاهِدِ فَرْحَـةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِلقَاءِ زَيْدٍ، فَتَقُولُ: قَدِمَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ المَدِينَةَ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْـتِي ، فَقَرَعَ البَابَ، فَقَامَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ عُرْيَانًا - لَيْسَ عَـلَيْهِ إِلا مَا يَسْتُرُ مَـا بَيْنَ سُرَّتِهِ وَرُكْبَتِهِ- وَمَـضَى إِلَى البَابِ يَجُرُّ ثَوْبَهُ، فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ..

وَتُعَقِّبُ عَائِشَةُ فَتَقُولُ: وَاللهِ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عُرْيَانًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ.

فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ حُبٍّ، وَهَلْ هُنَاكَ لِقَاءٌ يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ المَوَدَّةِ أَجملَ مِنْ هَذَا اللِّقَاءِ، لَقَدْ شَاعَ أَمْرُ هَذَا الحُبِّ وَاسْـتَفَاضَ حَتَّى أَصْبَحَ إِحْدَى السِّمَاتِ المُمَيِّـزَةِ فِي حَيَاةِ زَيْدٍ، وَيَالَهَا مِنْ مَكْرُمَةٍ يَهبُهَا اللهُ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لِوَاحِدٍ مِنْ عِبَادِه، فَيَنَالُ بِهَا دَرَجَةَ المُقَرَّبِينَ.

سَكَتَ الوَالِدُ قَلِيلاً، وَاسْتَجمَعَ خُيُوطَ أَفْكَـارِه، وَلَمْلَمَ مَا فِي ذَاكِرَتِهِ عَنْ حَيَاةِ الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، ثُمَّ قَالَ:

وَبَقِيَ الحَدِيثُ عَنْ جِهَادِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، وَاسْتِشْهَادِهِ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ.

فَعَنْ جِهَـادِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَقُولُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِي اللهُ عَنْهَـا : مَا بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَيْشًا فِي سَرِيَّةٍ إِلا أَمَّرَهُ عَلَيهِمْ، وَلَوْ بَقِيَ لاسْتَخْلَفَهُ بَعْدَهُ.

بِمَعْنَى أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ بَعْدِه.

وَيَقُولُ سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ: غَزَوْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ، وَمَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ سَبْعَ غَزَوَاتٍ يُؤَمِّرُهُ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَيَقُولُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : وَايمُ اللهِ، إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا بِالإِمَارَةِ، (يَعْنِي زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ).

وَلَقَد اخْتُتِمتْ حَيَاةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ بِإِحْـدَى الحُسْنَيَيْنِ، أَلا وَهِيَ الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِذِ اسْتُشْهِدَ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ الَّتِي كَانَ هُوَ وَاحِدًا مِنْ قَادَتِهَا، وَأَمِيرًا مِنْ أُمَرَائِهَا.



قَالَتْ إِيمَانُ: لِيذْكُرْ لَنَا الْوَالِدُ الكَرِيمُ شَيْئًا عَنْ أَسْبَابِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ، وَنَتَائِجِهَا.

قَالَ الوَالِدُ: إِنَّ مُـؤْتَةَ بَلْدَةٌ صَغِيرَةٌ تَقَعُ عَلَـى الحُدُودِ بَيْنَ الجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّـةِ وَبِلادِ الشَّامِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْبَلْدَةَ الصَّغِيرَةَ تَحتَلُّ مَكَانًا بَارِزًا فِي التَّارِيخِ الإِسْلامِيِّ، وَفِي تَارِيخِ الحرُوبِ، فَقَدْ دَارَتْ فَوْقَ أَرْضِهَا مَعْرَكَةٌ كَانَ لَهَا شَأْنٌ كَبِيرٌ، أَبرَزَتْ دُرُوسًا لِلحرْبِ مُسْتَفَادَةً، وَأَعْطَتْ أَعْظَمَ الأَمْثِلَةِ وَأَرْوَعَهَا لِلاسْتِشْهَادِ الكَرِيمِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالمَبْدَأ وَالْعَقِيدَةِ.

أَمَّا عَنْ أَسْبَابِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ فَيَقُولُ المُؤَرِّخُونَ : أَنَّهَا كَانَـتْ نَتِيجَةً طَبِيعيَّةً لِتَصرُّفٍ أَحمَقَ لحِقَ بِالمُسْلِمِينَ مِنْ جَانِبِ الرُّومِ وَأَشْيَاعِهِمْ، فَقَدْ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَعْبَ بْنَ عُميرٍ الغِفَارِيَّ عَلَى رَأْسِ سَرِيَّةٍ يَدْعُو النَّاسَ عَلَى حُدُودِ الجَزِيرَةِ مِنْ نَاحِـيَةِ الشَّامِ إِلَى الإِسْلامِ. فَقَتَلُوهُمْ إِلا كَعْبًا الَّذِي نَجَا بِجرَاحَاتِهِ.

ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ بَعْـدَ ذَلِكَ الحَارِثَ بْنَ عُميرٍ الأَزْدِيَّ إِلَى مَلِكِ بُـصْرَى، يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلامِ، فَعَرَضَ لَهُ شُرَحْبِيلُ بنُ عَمْـرٍو الْغَسَّانِيُّ فَقَتَلَهُ، وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الخُرُوجِ لِلـجِهَادِ فِي سَـبِيلِ اللهِ، فَاجْـتَمَعَ لَدَيهِ ثَلاثَةُ آلافِ مُـقَاتِلٍ، يَبْغُـونَ الثَّأْرَ وَيَطْلُبُونَهُ.

إِنَّ الْعُرْفَ وَالتَّقَالِيـدَ تَقْضِي بِإِكْرَامِ السُّفَرَاءِ وَالرُّسُلِ؛ لأَنَّ الرَّسُولَ أَوِ السَّـفِيرَ مَا هُوَ إِلا رَجُلٌ يَحمِلُ رِسَـالَةً مِنْ إِنْسَانٍ إِلَى آخَـرَ، لَيسَ مُحَارِبًا وَلا مُـعْتَدِيًا، فَـلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يُسِيءَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ شُرَحْـبِيلَ بْنَ عَمْرٍو هَذَا تَصَرَّفَ تَصـرُّفًا بَعِيدًا عَنْ كُلِّ عُرفٍ وَكُلِّ تَقَـالِيدَ، وَشَذَّ عَنِ الأُصُولِ الَّتِي ارْتَضَـاهَا المُجتَمَعُ وَرَعَـاهَا فِي مُعَامَلَةِ الرُّسُلِ وَالسُّـفَرَاءِ، وَاعْتَبَـرَ المُسْلِمُونَ ذَلِكَ تَحَدِّيًا مِنْهُ وَمَسَـاسًا بِهَيْبَةِ الإِسْـلامِ وَالمُسْلِمِينَ؛ وَلِهَذَا قَرَّرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَبعَثَ جَـيْشًا إِلَى الشَّامِ يُؤَدِّبُ هَذَا المُعْتَدِيَ وَيَمحُو هَذِهِ المَهَانَةَ.

وَحَدَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْقِيَادَةَ فَجعَلَهَا لِزَيْدِ بنِ حَارِثَةَ أَوَّلاً، فَإِذَا اسْتُشْهِدَ يَخْلُفُهُ فِي قِيَادَةِ الجَيْشِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَإِذَا اسْتُشْهِدَ جَعْفَرٌ يَخْلُفُهُ فِي الْقِيَادَةِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَلْنَنظُرْ إِلَى اخْتِيارِ زَيْدٍ لِقِيَادَةِ هَذَا الجُيْشِ، إِذْ كَانَ خُضُوعًا لِمَبْدأٍ مِنْ مَبَادِئِ الإِسْلامِ، هُوَ الْمُسَاوَاةُ الْمُطْلَقَةُ بَينَ النَّاسِ، دُونَ نَظرٍ إِلَى الأَصْلِ وَالحَسَبِ وَالنَّسَبِ، وَلَكِنَّ النَّظَرَ الصَّحِيحَ يَقْتَضِي أَنْ يكُونَ اخْتِيَارُ الإِنْسَانِ قَائِمًا عَلَى أَسَاسٍ مِنْ صِفَاتِهِ وأَعْمَالِهِ وَعَقِيدَتِهِ وإِيمَانِهِ، وزَيْدٌ هُوَ عَتِيقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَوَلِّيهِ الْقِيَادَةَ يُرْسِي قَوَاعِدَ الْمُسَاوَاةِ فِي الْمُجتَمعِ الإِسْلامِيِّ.

وَمَضَى الجَيْشُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى أَنْ وَصَلُوا أَرْضَ الشَّامِ عِنْدَ مَعَانٍ، وبَلَغَهُمْ أَنَّ هِرَقْلَ مَلِكَ الرُّومِ تَجَهَّزَ لَهُمْ فِي مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ مِنَ الرُّومِ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِم مِائَةُ أَلفٍ أُخْرَى مِنَ الْقبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُنْتَشرَةِ فِي تِلْكَ البِقَاعِ، وَمَعَهُمُ الخَيْلُ وَالسِّلاحُ وَالزَّادُ وَالعَتَادُ، فَكَانَتْ كَفَّةُ المِيزَانِ غَيْرَ مُتسَاوِيَةٍ بِحَالٍ، وَالتَّفْكِيرُ فِي النَّصرِ أَوِ العَودَةِ حَتَّى بِلا قِتَالٍ شَيْئًا مِنَ الْمُسْتَحِيلِ.

وكَانَ لابُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ المَوْقِفِ وَدِرَاسَتِهِ مِنْ كُلِّ جوَانِبِهِ، وبَدَأَتِ الْمُنَاقَشَةُ، واستمَرَّتْ لَيْلَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ، ولَكِنَّ عَبدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ أَحَدَ القَادَةِ الثَّلاثَةِ الَّذِينَ عَيَّنَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ ، يَبُتُّ فِي الأَمْرِ، وَيَقْطَعُ كُلَّ مُنَاقَشَةٍ، إِذْ وَقَفَ بَيْنَ الجُنُودِ خَطِيبًا، فَقَالَ: «يَا قَوْمُ ، وَاللهِ إِنَّ الَّذِي تكرَهُونَ هُوَ الَّذِي خَرَجتُمْ لَهُ، إِنَّكُمْ خَرَجْتُمْ تَطلُبُونَ الشَّهَادَةَ، وَنَحْنُ مَا نُقَاتِلُ النَّاسَ بِعُدَدٍ وَلا بِقُوةٍ وَلا بِكَثْرَةٍ، وَمَا نُقَاتِلُهُمْ إِلا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكرَمَنَا اللهُ تَعَالَى بِهِ، فَانْطَلِقُوا، فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ، إِمَّا ظُهورٌ- أَيِ انْتِصَارٌ- وَإِمَّا شَهَادَةٌ».

وكَـانَ رَأْيُ عَبـد الله بْنِ رَوَاحَةَ هُوَ رَأْيُ الإسْـلام، وَخَطُّهُ الأَسَـاسِيُّ، فَالْمُسْلمُـونَ لا يُقَاتلُونَ بعَدَد، ولا يُقَاتلُونَ بعُدَّةٍ وَسِـلاحٍ، ولَكنَّهُمْ يُقَاتلُونَ بالإيمَان وَالعَقيدة، وَبالدِّين الَّذي شَرَّفَهُمُ اللهُ تَعَالَى به، وأَعلَى به ذكْرَهُمْ فِي العَالَمينَ، وَاقْتَنَعَ الجَيْشُ بمَنْطق عَبد الله بْنِ رَوَاحَةَ النَّابعِ منْ مَنطقِ الإِسْلامِ، فَقَالُوا: «صَدَقَ وَالله عَـبْدُ الله ابْنُ رَوَاحَةَ» وَقَرَّرُوا أَنْ يُلاقُوا جَيْشَ الأَعداء.

وَالتقَت القُوَّتَانِ فِي مُؤتَةَ، وَبَدَأَ القتَالُ.

وَتَقَدَّمَ زَيْدٌ الصُّفُـوفَ، وَهُوَ يَحْملُ رَايَةَ رَسُولِ الله ﷺ، وَعَمَدَ الرُّومُ أَنْ يُصيـبُوا قَائدَ الجَيْشِ، ظَنًّا منْهُمْ أَنَّ إصَـابَتَهُ تُؤَثِّرُ عَلَى مَـعنويَّات الجُنْد، وَتُصِـيبُـهُمْ بالتَفَكُّك وَالانحـلال وَالخُذْلان.

وَهُنَا نَعُودُ إلَى مَشْهد كَانَ يَجري فِي المَدينَة، عَلَى ذَلكَ البُعْد البَعيد منْ أَرْضِ المعْرَكَة، وَالنَّبيُّ ﷺ يصفُ الموْقعَـةَ لمَنْ حوْلَهُ، وكَأَنَّهُ حَاضِـرٌ معَ الجُنْد مُشَاهدٌ لكُلِّ مَا يَـحدُثُ، قَالَ ﷺ: «**استَغْفرُوا لزَيْد فَقَدْ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَهُوَ يَسْعَى**».

وَصَدَقَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَدْ هَاجَمَ زَيْدٌ بكُلِّ مَا يَملكُ منْ قُوة، وَقَاتَلَ مَعَهُ المُسْلمُونَ حَتَّى تَفَجَّرَ دَمُهُ، وَتَمزَّقَتْ أَوصَالُهُ، وَأَبْلَغَ رَسُولُ اللهُ أَصْحَابَهُ باسْتشْهَاده.

وَحَملَ الرَّايَةَ جَعْفَـرُ بْنُ أَبِي طَالب، وَتَقَدَّمَ للقيَادَة، كَانَت الرَّايَةُ فِي يَمينه، فَـأَصَابَتْهَا ضَرْبَةٌ فَقُطعَـتْ، فَحملَ الرَّايَةَ بشمَاله، فَـأَصَابَتْهَا ضَـرْبَةٌ فَقُطعَتْ، فَاحْتَضَنَهَـا، بمَا بَقيَ منْ ذرَاعَيْه حَتَّى قُتلَ، وَأَخَـذَ الرَّايَةَ عَبدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ، وَقَاتَلَ إلَى أَن اسْتُشْهـدَ، فَاخْتَارَ الجَيْشُ خَالدَ بْنَ الوَلِيـد للقيَادَة، فَتَـمكَّنَ بحيلَة حَربيَّةٍ بَارعَـةٍ أَنْ يَتَخَلَّصَ منَ المَعْرَكَة وَيَعُـودَ بجَيْشِ المُسْلمينَ إلَى المَدينَة المُنورَة.

وكَانَ الوَحْيُ ينزلُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ بأَنْبَاء القتَال، فَيُبَلِّغُ النَّاسَ بهَا قَائلاً: «**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصـيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَـعْفَـرٌ فَأُصـيبَ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ رَوَاحَـةَ فَأُصيبَ، حَـتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَـيْفٌ منْ سُيُوف الله، حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْه**».



هَاجَمَ زيدٌ بكـلِّ مـا يمْلكُ من قُوة ، وقـاتلَ معـه المسلمُون حتَّى تفجَّر دَمُه ، وتمَّزقَتْ أوْصَاله ، وأبلَغَ رسُولُ اللَّه ﷺ أصـحَابه باستِشهَادِه . .

قَالَ ﷺ : «**اسْتَغْفِـرُوا لِزَيْدٍ فَقَدْ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَهُوَ يَسْعَى**».



وَتَلَقَّى المُسْلِمُونَ فِي المَدِينَةِ الخَبَرَ بِالأَلَمِ وَالضِّيقِ، وَخَرَجُوا يَسْتَقبِلُونَ الجيشَ فَالتَقَوا بِهِ خَارِجَ المَدِينَةِ فِي مكَانٍ يُقَالُ لَهُ : الجرْفُ، فَجعَلُوا يَقْذِفُونَ التُّرَابَ فِي وُجُوهِ الجُنْدِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ: يَا فُرَّارُ، أَفَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ .

ولَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، وقَدْ وَزَنَ الأُمورَ بِميزَانِهَا الصَّحِيحِ، كَانَ يَقُولُ لِلنَّاسِ: إِنَّهُمْ لَيسُوا بِالفُرَّارِ، ولَكِنَّهُمْ الكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَفِي نِهَايَةِ الجَلْسَةِ قَالَ الوَالِدُ: هكَذَا عَاشَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَتًى مُسْلِمًا، وَرَجُلاً مُجَاهِدًا ، وَهكَذَا اسْتُشْهِدَ بَطلاً فَرِيدًا، وَمِقْدَامًا شُجَاعًا، فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَأَسْكَنَهُ الجَنَّةَ فِي صُحبَةِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

وَاقْرَءُوا يَا أَبْنَائِي الآيَاتِ الَّتِي بَدَأْنَا بِهَا.

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ [**الأحزاب**] صَدَقَ اللهُ العَظِيمُ.

وإِلى اللِّقَاءِ فِي القِصَّةِ التَّالِيَةِ (٩٤)

وَعُنْوَانُهَا: (فى بيت النبى ﷺ)

الأَسئِلَةُ

١- مَاذَا حَـدَثَ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَهُوَ طِفْلٌ صَـغِيرٌ، وكَيْـفَ انْتَهَى بِهِ المَطَافُ إِلى صُحبَةِ الرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ؟.

٢- كَيفَ عَثُـرَ أَهْلُ زَيدٍ عَلَيهِ، ومَاذَا كَانَ مَـوْقِفُهُ عِنْدَمَا لَقِيَ أَبَاهُ وَعَمَّـهُ فِي مَكَّةَ، عِندَمَا حَضَرَا لِيَسْتَرِدَّاهُ، وَيَعُودَا بِهِ إِلَى دِيَارِهِمْ؟.

٣- كَيْفَ كَانَ زَوَاجُ زَيْدٍ مِنَ السَّيِّدَةِ زَينَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وكَيْفَ انْتَهَى؟.

٤- كَيفَ أَصْبَحَتِ السَّـيدَةُ زَينَبُ بِنْتُ جَحشٍ أُمًّا لِلمُؤْمِنِينَ، وَمَا السَّبَبُ التَّشْرِيعِيُّ الَّذِي دَعَا النَّبِيَّ ﷺ إِلَى الاقْتِرَانِ بِهَا؟.

٥- اشْتُهِرَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِلَقَبٍ أَضَافَهُ إِلَى اسْـمِهِ، مَا هَذَا اللَّقَبُ، وَمَا سَبَبُ تَلْقِيبِ زَيْدٍ بِهِ؟.

٦- كَانَ لاخْتِـيارِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ قَائِدًا وَأَمِيـرًا لِلْجَيْشِ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ سَبَـبٌ تَشْرِيعِيٌّ يُبَيِّنُ إِحْدَى فَضَائِلِ الإِسْـلامِ، اذْكُرِ الحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ، مُبَيِّنًا مَا جَـاءَ فِي قِصَّةِ زَيدِ بنِ حَارِثَةَ مِنْ حِكَمٍ تَشْرِيعِيَّةٍ أَبْطَلَ بِهَا الإِسْلامُ بَعْضَ العَادَاتِ الجَاهِلِيَّةِ.

دَرْسُ النَّحْوِ

المُنَادَى

المُنَادَى هُوَ المَطْلُوبُ إِقْبَالُهُ، أَيِ الإِنْسَانُ الَّذِي تُنَادِيهِ لِيُقْبِلَ عَلَيْكَ، واختَصَّهُ النَّحويُّونَ بِأَنَّهُ المَطْلُوبُ إِقْبَالُهُ بِحُرُوفِ النِّدَاءِ الَّتي هِيَ «يَا» أَوِ «الهَمزَةُ» تَقُولُ: يَافُلانُ تَعَالَ، أَفُلانُ تَعَالَ، وَ«أَيْ» وَ«أَيَا» وَ«هيَا»، تَقُولُ: أَيْ خَالِدُ افْهَمِ الدَّرسَ، وَأَيَا مُحمدُ أَقْبِلْ، وَهَيَا كَمَالُ تَعَالَ، وَهكَذَا.

وَيَنْقَسِمُ المُنَادَى إِلَى خَمْسَةِ أَنْوَاع.

أَوَّلُهَا المُفْرَدُ العَلَمُ ، وَكَلِمَةُ المُفْرَدُ هُنَا تعني شَيْئًا آخَرَ غيرَ المَعْرُوفِ عَنِ الإِفرَادِ وَالتَّثْنِيَةِ وَالجَمعِ، وَإِنَّمَا يُقْصَدُ بِهِ مَا لَيْسَ مُضَافًا وَلا شَبِيهًا بِالمُضَافِ، فَكلمةٌ مِثْلُ : الطُّلابُ، وَالطَّالِب سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، تَقُولُ: يَامحمدُ، وَيَا محمدَانِ، وَيا محمدُونَ، ويَا زَينَبَاتُ، أَو يَا زَيَانِبُ، وَتُعرِبُهَا كُلَّهَا قَائِلاً : أَنَّهَا مُفرَدٌ عَلَمٌ.

وَالنَّوعُ الثَّانِي مِنَ المُنَادَى هُوَ النَّكِرَةُ المَقْصُودَةُ، وَهِيَ الَّتي يُرَادُ بِهَا إِنْسَانٌ مُعَيَّنٌ.

وَالثَّالِثُ النَّكِرَةُ غَيرُ المَقْصُودَةِ، وَهِيَ الَّتي يُقصَدُ بِهَا إِنسَانٌ غَيْرُ مُعَيَّنٍ.

وَالرَّابِعُ المُضَافُ .

وَالخَامِسُ الشَّبِيهُ بِالمُضافِ، وَلِكُلٍّ مِنْهَا طَرِيقَةٌ فِي إِعْرَابِهِ سَنَذْكُرَهَا لاحِقًا.

سلسلة
أطفالنا في رحاب القرآن الكريم
آيات وقصة

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر
دار الكتاب الحديث